العلامة اللسانية بين الدلالة اللغوية والدلالة الشرعية

د. عبد الجليل مرتاض

جامعة تلمسان

علامة ما ليس إجبارا أن تكون دوما لسانية، لكل مؤسسة صناعية أو اقتصادية كبرى علامة، لكنها ليست في شيء من اللسانيات، ومثلها علامات أخرى لاحصر لهـا، والسبب في هذا أنها لا تقبل أي تقطيع مزدوج أو تصرف فيها، يكاد هذا الضـرب من العلامات السيميولوجية يشبه إلى حد ما أصوات البـهائم والطبيعـة ولغـات الكائنات الأخرى غير الإنسانية، لا يمكن لك أن تقطع الضوء الأحمر المشير إلى سائق السيارة بالوقوف إلى مستويين، ومثل هذا: صوت رعد وهدير بحر، وثغاء حـروف ومواء قط...

والعلاقة بين شقي العلامة اللسانية تشبه العلاقة الكامنة في العلامة غير اللسانية مـن حيث استبعاد أية صلة طبيعية بين العلامة وما تدل عليه . لا توجد أية صلة طبيعيـة بين (علم أحمر) واستحمام يعرض صاحبه لخطر، وبالمثل لا توجد أية صلة طبيعية بين

(خ،ر،و،ف)-خروف-والحيوان المشار إليه، والوحدات المؤلفة للغة الإنسانية كلها علامات بصرف النظر عن كونها دالة أو غير دالة .

ومما تذهب إليه بعض المعاجم اللسانية المختصة[1] أن المعنى الأكثر عموما و شيوعا بالنسبة للعلامة Le signe أنه يشار بها إلى كل من الرمز le symbole والمؤشر l'indice أو إلى الشارة A Le signal بحيث عنصر من ماهية مختلفة بديل substitut لعنصر B والعلامة أولا يمكن أن تعادل المؤشر l'indice وبذلك يكون المؤشر أو العلامة ظاهرة غالبا ماتكون طبيعية، وتدرك إدراكا حسيا مباشرا، مثلا: اللون القاتم للسماء علامة أو مؤشر لعاصفة وشيكة الوقوع، وارتفاع درجة حرارة في جسم يمكن أن تكون علامة أو مؤشر لمرض يتهيأ للبروز .

ويمكن للعلامة بمفهوم آخر أن تكون معادلة équivalent للشارة، وبهذا المعنى فإن العلامة والشارة جزء من صنف المؤشرات categorie des indices، ويمتلك مميزات من العلامة – المؤشر، ومثل هذه الأخيرة العلامة – الشارة بوصفها حدثا يدرك فورا لينبيء بحدوث شيء آخر لا يدرك فوريا ، غير أنه لكي تكون العلامة le signe شارة ينبغي مراعاة شرطين:

- علامة شارة تكون إرادية وعرفية وضمنية ومشتركةcombine مع علامات أخرى من ذات الطبيعة بحيث تشكل نظاما من العلامات أو القانون، لأنه على مستوى قانون واحد يمكن للعلامات أن تكون مختلفة الأشكال:

شكل خطي : حروف ، أعداد ، سمات مسجلة على مفكرة للتذكير بموعد ، لوحات طرقية، ...

شكل كجهور: Sonore: أصوات مرسلة بوساطة جهاز صوتي لفرد معتبر كمرسل لمرسلة .

شكل بصري : شارات حركية كتلك التي تصدر عن الأعمى رافعا عصاه البيضاء وأخيرا يمكن للعلامة أن تعادل الرمز، وبالتالي فإن العلامة – الرمز أكثر اعتيادا من شكل بصري (بل وحتى خطي) تصويري، ذلك أن العلامة – الرمز علامة تصويرية لشيء لا يكون جليا "ne tombe pas sous le sens" مثال ذلك:

أن العلامة الممثلة لميزان هي علامة رمز لفكرة مجردة Abstraite للعدالة .

ولإعطاء صورة مقارنة متى تكون العلامة ذات قصد تبليغي أو لاتكون، ومتى تكون العلامة مؤشرا Indice، أو شارة أو رمزا أو لسانية نورد اللوحة التالية[2] :

لايوجد أي قصد	توجد نية للتبليغ		
مؤشر Indice	شارة Signal		
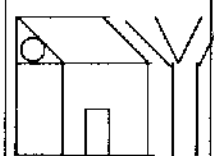	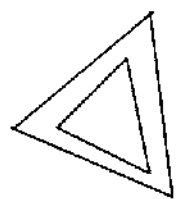	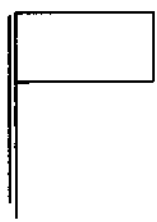	[kanar]
	رمز Symbole	إشارة Signe	علامة
علوم الملاحظة	سيميولوجيا Semiologie		لسانيات

ومما أصبح شائعا أن العلامة اللسانية منذ عهد دي سوسور صارت تميز بالسمات التالية:

أ- مزودة بمحتوى دلالي (مدلول Signifie) وتعبير صوتي Expression (دالSignifiant)

والعلامة تجمع Un concept وصورة صوتية سمعية Une Image Acoustique

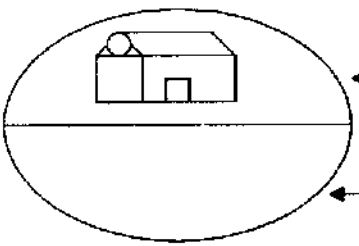

تصور ، محتوى دلالي . مدلول

صورة سمعية صوتية، تعبير صوتي. دال

[م.ن.ز.ل.]

ولا نستطيع في مثل هذه الحالة أن نفصل التصورات أو المداليل بالأصوات التي تمثلها لأنه لا يوجد دال دون مدلول، ولا مدلول دون دال، وهذا بالنسبة لكل علامة لسانية حدث أن تواضع الناس عليها، و إلا فإن عالم المداليل عالم غير عالم الدوال، وإحضارها لا يشترط سلفا دوال بعينها، ويبقى الدال والمدلول متكافلين بحيث لا يمكن إحداث فجوة في وجه أحدهما دون الآخر في الآن نفسه.

-إن الصلة بين الدال والمدلول هي في الوقت ذاته إعتباطية وحتمية، لا توجد أية علاقة بين التصور المتمثل في canard " بط " وتتابع أصوله التي تمسه .

K+A+N+A+R ولعل الحجة الموجودة في التسميات من لغة إلى لغة للمدلول نفسه تؤكد هذا :

-في الفرنسية: canard

-في الانجليزية : Duck

-في الايطالية :Anatra

-في العربية : بط

وبين حرية الدال وقسره يقول دي سوسور:" إذا تبدى الدال عنصرا حر الانتقاء بالقياس إلى الفكرة التي يمثلها، فهو –حقيقة –على نقيض ذلك، إذ إنه ليس حرا، بل هو مفروض، وذلك نسبة إلى الفئة اللغوية التي تستعمله...غير أننا نزيد أن العلامة لابد أن تكون نفسها، وليس غيرها[3]. "

و يرى الرجل أن العلامة اللسانية لا تربط كائنا ما باسم بل تصورا بصورة صوتية سمعية، وما يجمع دالها بمدلولها مسألة اعتباطية معرفا العلامة اللسانية بأنها "مجموع ما ينجم عن ترابط الدال بالمدلول [4]"

ج- العلامة اللسانية تجري دائما في الزمن عبر دال خطي ممكن قياسه في بعد واحد، غير أن وحدتين صوتيتين مثلا لا يمكن لهما أن توجدا في النقطة نفسها من السلسلة الكلامية، ولذا أشار دي سوسور أن لا وجود في اللغة إلا للاختلافات أو التعارضات " وإذا ما اتخذنا الدال والمدلول، فإن اللغة لا تتضمن أفكارا ولا أصواتا تسبق المنظومة الألسنية بل اختلافات تصورية وأخرى صوتية منبثقة – وحسب – عن هذه المنظومة وما يوجد في علامة ما من فكرة معينة من مادة صوتية هو أقل أهمية مما يوجد حولها في العلامات الأخرى، ... إن منظومة ألسنية ما إنما هي سلسلة اختلافات بين أصوات منسقة في سلسلة اختلافات فكرية5 "، ويبقى أن تعارض وموقع الوحدات الصوتية أو حتى اللغوية (المونيمات أو الكلمات)هما اللذان يقع عليهما كاهل بيان التمييز والتغيير الطارئ في المعنى؛ إذ شتان ما بين:

علي خلف عثمان / عثمان خلف عليا

واختلاف التموقع بين الوحدات الدالة وحده كفيل بالتمييز بين أنظمة تابعة للغة حقلها الزمن وأنظمة بصرية حيث العلامات تنتظم في الفضاء في عدة أبعاد، وهذا ما يؤدي بالفعل إلى التمييز بين ما هو لساني وآخر سيميولوجي .

د- طبيعة العلامة اللسانية طبيعة تفاضلية Differentiel، وتقوم على غيابها أو حضورها كوحدة قائمة بذاتها ومتقطعة أو منفصلة، وليس كامتداد مستمر.

هـ - وأخيرا، فإن العلامة اللسانية تنتمي إلى النظام الذي يكون اللغة، لا تكسب أية علامة قيمتها إلا بتعارضها إزاء العلامات الأخرى للنظام، والذي يهم إذا ليست الكيفية الإيجابية، لكن الطابع التفاضلي للعلامات بما أنها تؤدي وظيفتها بالتعارض مع بعضها بعضا. إن الاختلاف السمعي بين:

Pardon(عفوا) و Lardon(شريحة شحم) يقوم على التباين بين المقطع الاستهلالي [P]و[l] ولذا، فإن الاختلاف بالتعارض يكفي وحده بالتمييز بين هذين الدالين واللذين يشيران في الوقت نفسه من خلال تعارضهما إلى وجود مدلولين مختلفين[6] ." وهذا حين نتحدث عن التبليغ اللساني الواقعي أو التشخيصي ، أما إذا ساد تبليغنا خيال وصورة ومجاز ودخلنا عالما آخر غير واقعي ... يصبح لمدلول أو أكثر دال واحد.

لك يا منازل في القلوب منازل

فالعلامة "منازل" مكررة بدال واحد، ودالة على معنيين مختلفين، أضف إلى ذلك أنها من الدوال الممتزجة Monemes Amalgames، لأنها جمع تكسير لا يمكن فصل مدلوليهما شكليا أحد هذين المدلولين (منازل)أي جمع، وآخرهما (منزل) أي

مفرد، ولذا يستحيل علينا أن ندرك التمييز الخطي بينهما خلافا لما لو تعلق الأمر بصيغ جمع أخرى كجمعي المذكر السالم أو المؤنث السالم مثلا[7]

وما قيل عن العلامة اللسانية التي قد تتعدد في مدا ليلها بدال واحد يتعذر التمييز الخطي بين مدا ليلها، قد يقال الشيء نفسه كلما تعلق الأمر بالمعنى من خلال مراعاة الفونولوجيا البنيوية التي تلجأ إلى "مقارنة علامتين لغويتين تكون في غالب الأحوال كلمتين لا تختلف إلا في مقطع من المقاطع، وقد يؤدي هذا الاختلاف في الشكل الصوتي إلى اختلاف في المعنى، كما أنه لا يؤدي إليه، فمثلا مقارنة "راب"و" غاب " تجعلنا نجزم أن الراء والغين حرفان مختلفان في العربية، بينما في الفرنسية كلمة Riche بمعنى (غني) إذا نطق بها "ريش" أو" غيش "، فإنها تتغير من ناحية الشكل لكنها لا تتغير من ناحية المعنى[8]...، بخلاف الراء في العربية هو صوت واحد سواء فخم أم رقق، لكن الأمر قد يكون مختلفا فيه بين الفصحى والعامية، بحيث نلاحظ أن ثمة فرقا دلاليا بين "فرد"Individuبالتغليظ في الراء، و"فرد" بالترقيق على الراء، وهو يدل في العامية على عدة مداليل:

- تطلق على الولد الصغير أو الشاب مدحا أو ذما حسب السياق والفعل الذي يلصق به تبعا لإساءة أو عمل مستحسن.
- قد يطلق على العجل ولد البقرة.
- و إذا أضيفت التاء إليه أصبحت "فردة" وتطلق في العامية على إحدى النعلين أي على كل ما هو وتر.

هل العلامة اللسانية ثنائية أم تعددية ؟ كنا أثرنا هذه النقطة في مناسبة أخرى وقلنا بأننا حين نأخذ

بعين الاعتبار لغتنا الطبيعية فإننا لا نتفق كليا مع وجهة نظر دي سوسور التي ترى أن العلامة اللسانية "لا تربط شيئا باسم ، بل تصورا بصورة سمعية [9] "، خصوصـــا وأن الرجل ينبه على أن المقصود بالصورة السمعية ليست الصوت المادي الذي هو شيء فيزيائي صرف، بل هي — أي الصورة السمعية – الدفع النفسي لهذا الصوت، مردفا أن هذه العلامة كيان نفسي ذو وجهين (تصور/صورة سمعية)[10] .

ومما كنا ألمحنا إليه "أن العلامة اللسانية في لغتنا الموروثة، وليس العكس، وكل علامة لسانية خرجت من عالم الاعتباط، ودخلت عالم الدلالات، تنطبق عليها هذه الرؤية في نظرنا ن لكن رؤية

شيء صورة

اسم

دي سوسور صادقة في نظرنا بالنسبة لكل تصور لم يرتبط بعد بصورته، وإذا فاللغـــة تتميز وفق هذه الرؤية بعلامتين لسانيتين، وليس فقط بعلامة واحدة[11]

إن القلم الذي أكتب به الآن اسم وشيء معا بالنسبة لي، وليس ممكـــن أفضـــل بينهما أي بين اسمه وشيئيته .

أما أصواته الثلاثة فقد ارتبطت بتصوره وانتهت باختيار نطقه على هذا النحو مقابل نحو أو أنحاء أخرى:

ـــ قلم على وزن فعل بمعنى مفعول / قلم (فعل)

ـــ قلم بتشديد العين دلالة على التكثير.

ـــ قلم يعني أيضا قصبة مبرية يكتب بها (القلم التقليدي).

ـــ قلم واحد من النبل أي السهم[12].

وبذلك تكون العلامة اللسانية بهذا الاعتبار كيانا ذا أربعة أوجه، وليس ذا وجهين وحسب "وإذا كان دي سوسور لا ينكر تعددية العلامات الضرورية من أجل تشكيل

أية لغة، فإنه يقرر أن للرمز (الدال) علاقة عقلانية مع الشيء الذي يدل عليه في كل ما هو غير لغوي، غير أن هذه القاعدة غير موجودة بالقياس إلى اللغة التي هي منظومة علامات اعتباطية."[13]

وحتى لا نبخس الناس أشياءهم، فإن المطلع على التراث اللغوي العربي لا يعدم إثارات تغلب عليها السطحية تارة والميتافيزيقيا تارة أخرى، ومع ذلك فهي جديرة بالانتخال ولفت النظر لم يفت الدارسين العرب القدماء أن تحدثوا عن العلامة اللغوية بطريقتهم الخاصة، وهم يشيرون إلى السبب الذي بموجبه وضعت الألفاظ، حيث كانوا أسبق من دي سوسور نفسه حين صرحوا بأن "العمدة ليس هو اللفظ، ولكن الكلام النفساني القائم بذات المتكلم وهو حكمه، واللفظ دليل عليه"[14] متسائلين:"هل الألفاظ موضوعة بإزاء الصور الذهنية... أو بإزاء الماهيات الخارجية؟" [15] منتهين إلى أن اللفظ موضوع بإزاء المعنى من حيث هون مع قطع النظر عن كونه ذهنيا أو خارجيا "[16] ذاهبين إلى أن حصول المعنى في الخارج والذهن من الأوصاف الزائدة على المعنى، واللفظ إنما وضع للمعنى من غير تقييده بوصف زائد"[17]

ورأوا كذلك، وهم يعالجون ما سمي مناسبة الألفاظ للمعنى إنك لو "قلبت فسميت زيدا بعمرو وعكسه لصح"[18]، وهذه الرؤية تقترب من اعتباطية العلامة اللسانية، إن لم تكن هي نفسها، ألم يقل دي سوسور "إن الرابط الجامع بين الدال والمدلول هو اعتباطي... وهكذا ففكرة "أخت" لا ترتبط بأية صلة داخلية مع تعاقب الأصوات: أ ، خ ، ت. تلك التي تقوم مقام الدال بالنسبة لها، ويمكن تبديل هذه الأخيرة بأي تعاقب آخر أيا يكن شكله."[19] وذهب العرب إلى أن تبديل العبارات ممتنع بعد ثبوت العلامة وتواضع الناس عليها [20]، والفكرة نفسها قال بها دي سوسور :"ليس للفرد القدرة على تغيير أي شيء في علامة ما، وذلك عند ثبوتها وتمكنها من مجموعة لغوية "[21]، ولعل النقطة الأكثر ضعفا في الرؤية اللغوية العربية حول ذات الموضوع أنهم كانوا يتوهمون أن المعاني أي المداليل غير متناهية والألفاظ أي الدوال متناهية، ومن ثم وجد ما يسمى بالمشترك في العربية مثل "العين" التي تطلق على عين الماء، وعين المال، وعين السحاب، والجاسوس، والحسد،... حتى إن بعض المصادر اللغوية لتذكر لها ثلاثين دلالة[22]، ومثل العين كلمة "الغروب":

يا ويح قلبي من دواعي الهوى = إذ رحل الجيران عند الغروب

أتبعتم طرفي وقد أزمعوا = ودمع عيني كفيض الغروب

كانوا وفيهم طفلة حرة = تفتر عن مثل أقاحي الغروب

حيث "الغروب" الأول: غروب الشمس، والثاني: جمع غرب، وهو الدلو المملوءة، والثالث: جمع غرب ويعني به الوهاد المنخفضة[23].

يجب ألا يسودنا أدنى شك بأن دلالة اللغة العربية على اختصاصات نقلية وعقلية بعيد مجيء الإسلام أن هذه اللغة "ظلت أسيرة الأطلال والوصف والتشبيب إلى أن جاء

عهدها الجديد، ... و العقول السليمة لا تقبل أن ما وصلنا من تراثها المحكم في نسجها وبنائها... يرجع إلى بضعة قرون وبضعة أجيال، لأن ما جاد به الزمان من حقوق دلالية اجتماعية وفنية وعمرانية، وأدبية وعلمية، واقتصادية، وحتى تكنولوجية بدائية يستبعد مثل هذه الطروحات الهشة، بل إن استيعاب العربية للقرآن الكريم دون عجز و لا خلل وحده لدليل على أن هذه اللغة تعود إلى تاريخ أبعد مما اعتاد الدارسون أن يحددوه تبعا لما وصلهم من معطيات مادية، هي في حقيقة أمرها أقرب حداثة إلى عصرهم منها إلى عصر اللغة العربية و أجيالها الموغلين في القدم معها."[24]

إننا لا نشك في الوثبة النوعية التي عرفتها اللغة العربية مع مطلع فجر الإسلام من خلال ذلك الكم الهائل من الدلالات الجديدة التي تحولت من دلالات لغوية أصلية إلى دلالات شرعية، و كيف انتقلت من العموم إلى الخصوص وفق ما حدده الشرع، ولكن مع ذلك لسنا من المتحمسين إلى قبر فترة لغوية انتهت وبعث فترة لغوية أخرى برزت، بل مما نميل إليه بقوة، استنادا إلى تاريخية هذه اللغة نفسها وكنوزها الأدبية وقواعدها اللسانية، أن اللغة العربية التاريخية "لم تنتظر انتظارا إلى غاية أقول العصر الجاهلي وطلوع الفجر الإسلامي لتنهض وتعبر عن نفسها، بل عرفت هذه النهضة معرفة مبكرة"[25]، من ذلك "أن المصطلحات الصناعية المتعلقة بالأدوات والوسائل الثقافية التي كان يستعملها العربي الجاهلي القديم، هي نفسها تقريبا المصطلحات التي ورثها عنها العربي الجديد، وما أكثر المصطلحات التي مازلنا حتى "بداية هذه الألفية "نستعملها كتلك المتصلة بالبسط و الفرش و الحلي و الجواهر و الأواني و آلات البيت و أدوات الفلاحة و أدوات الري،... و إذا كنا من أنصار القائلين بتضاهي اللغات في استعدادها وقدرتها على التعبير بما يجيش في خلد وأفكار أصحابها، فإننا لا

نساوي تاريخيا بين صمود لغة وسقوط لغة، ولا يمكن وضع ثلاثة آلاف من الألسنة المختلفة على محك واحد، وبالمقابل يمكن لكل لسان من هذه الألسنة أن يتنوع ويتطور، ولن يتأتى له ذلك إلا بتطور وتنوع وظائف المجتمع الذي يتبناها فكرا وحضارة وفنا..."[26]

ومن جهة أخرى، فإن الغائص في عمق تراث هذه اللغة لا يشخص بصره طويلا تعجبا مما غدت هذه اللغة تعبر عنه وتستوعبه في عصرها الإسلامي الجديد، مع أن تجاوبها الطارئ ليس بدعا في شيء أسوة بتجاوبها القديم مع كل المستجدات الصناعية والتجارية والظواهر الثقافية والرياضية والدينية التي كان يعتنقها ويمارسها عربي ما قبل سطوع الدين الجديد.

إن العربية كانت أداة تبليغية طيعة بلغت ذروة من الاستعداد الفطري، وطاقة فريدة من التفتح على أي معطى من المعطيات الجديدة، ولا تلتفت إلى أولئك اللغويين الذين لا يميزون أو لا يحبون أن يميزوا بين المفردات ومركباتها الإسنادية، والمتنورون من العرب أقروا قبل غيرهم من المحدثين بأن "واضع اللغة لم يضع الجمل كما وضع المفردات كذلك، بل ترك الجمل إلى اختيار المتكلم" [27] مستدلين على أن حال الجمل لو كانت حال المفردات " لكان استعمال الجمل وفهم معانيها متوقفا على نقلها عن العرب" كما كانت المفردات كذلك ولوجب على أهل اللغة أن يتتبعوا الجمل ويودعوها كتبهم كما فعلوا ذلك بالمفردات. "[28]

ومعنى ما نحن فيه أن نميز بين وحدة لغوية وهي منفردة، وإليها وهي مركبة دون إقصاء أي احتمال بأنه كان يمكن أن تكون مركبة بصورة أخرى غير الذي وجدت عليه أو ركبت فيه، ولا يثبت منها إلا ما ذهب مثلا، من ذلك ما يرويه لنا اللغويون

بأن أول من قال: "مات حتف أنفه"النبي-عليه الصلاة والسلام – ومثل ذلك: "الآن حمي الوطيس، "لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، "الحرب خدعة، "إياكم وخضراء الدمن"، وأول من قال:"اجعل هذا الشيء بأجا واحدا"- أي طريقا واحدا – هو عثمان بن عفان – ض-، وأول من قال: "هؤلاء الدجاجلة"في جمع الدجال هو مالك ابن أنس-ض- وأول ما سمع مصدر"فاض الميت " من شريح القاضي الذي قال: هذا أوان فوضه.[29]

إن ما ذكر من هذه التوثيقات باب لساني تاريخي عزيز لم تظفر به العربية حتى الآن، وهو يوضح لنا الاستعمال التاريخي وزمانه ومكانه لكلمات عربية كانت حتى عهد قريب وحدات لغوية قاموسية شبه جوفاء، غير أننا في المقابل ينبغي ألا نغتر بتلك الاستعمالات لنعدها عادة لغوية غريبة عما كان مألوفا في الخطابات العربية الشفهية، و إلا لما فهم مخاطب عن متكلم ما يخاطبه به.

ولسنا هنا في مقام الرد على هؤلاء اللغويين، بل فقط نريد أن نشير إلى أن التركيب: "مات حتف أنفه" كان موجودا في اللغة الجاهلية؛ ألم يقل السموأل:

وما مات منا سيد حتف أنفه؟

وتركيب "حمي الوطيس"، وهو كناية عن شدة الحرب، تركيب متداول بين العرب القدماء قبل الإسلام، ومثل ما مضى قول العرب:"فاض يفيض فيضا وفيوضا: مات، وكذلك فاضت نفسه أي خرجت روحه "[30]، وذكر اللغويون المعتد بهم أن فاضت نفس الرجل تفيض فيضا إذا خرجت لغة تميم، وإذا قيل فاظت نفسه فتلك لغة قيس، وذكر أبو زيد أن كل العرب تقول: فاظت نفسه إلا بني ضبة فإنهم يقولون فاضت نفسه بالضاد، ولعل أهل الحجاز وطيء يقولون: فاظت نفسه، وقضاعة وتميم وقيس

يقولون: فاضت نفسه مثل فاضت دمعته، وزعم أبو عبيد أنها لغة لبعض بني تميم يعني فاظت نفسه وفاضت [31].

أردت أن أحيل على بعض المصادر اللغوية الثقيلة لندرك مدى ضعف صحة التوثيقات السابقة، زد على ذلك أن شريحا أول من استعمل مصدر "فوض" من فاض يفيض يدعو إلى التساؤل ، لأن هذا المصدر لم تذكره كتب اللغة حتى في الفعل الذي عينه واو (فاض) فكيف يكون من الفعل الذي عينه ياء؟هذه قاعدة لغوية قياسية لا تقبل الجدل، ويكون مالك بن أنس أول من جمع "الدجاجلة" على" دجال "مع أن القياس تجمع الكلمة جمع مذكر سالما، فإن الفقهاء والمحدثين ليسوا علماء لغة ولا حجة فيها على اللغويين الضليعين مما حدا بابن داود أن يقول:" وإن قبيحا مفرط القباحة بمن يعيب مالك بن أنس بأنه لحن في مخاطبة العامة بأن قال: مطرنا البارحة مطرا أي مطرا أن يرتضي لنفسه هو أن يتكلم بمثل هذا،... وإنما العيب على من غلط من جهة اللغة فيما يغير به حكم الشريعة "[32]، ولعل ما يدعم قولنا الذي نعف به عن غمز هؤلاء قول ابن فارس:" وقد كان الناس قديما يجتنبون اللحن فيما يكتبونه أو يقرأونه اجتنابهم بعض الذنوب، فأما الآن فقد تجوزوا حتى إن المحدث يحدث فيلحن، والفقيه يؤلف فيلحن، فإذا نبها قالا: ما ندري الإعراب وإنما نحن محدثون وفقهاء، ولقد كلمت بعض من يذهب بنفسه ويراها من فقه الشافعي بالرتبة العليا في القياس فقلت له: ما حقيقة القياس وما معناه ؟ ومن أي شيء هو ؟ فقال: ليس علي هذا، وإنما علي إقامة الدليل على صحته، فقل الآن في رجل يروم إقامة الدليل على صحة شيء لا يعرف معناه، ولا يدري ماهو[33]"

ربما يكون ما ألمحنا إليه سابقا خارجا عن نطاق العلامة اللسانية ومجالاتها، غير أن نيتنا من وراء تلك الالتفاتة ترمي إلى التمييز بين ما هو مغلق في اللغة مثل القائمة السانتكسية، وما هو مفتوح فيها كالقائمة اللكسيكية ، وأما التراكيب والجمل فأداءات أسلوبية فردية لامتناهية ولا متشابهة سواء تمسكنا تمسكا معياريا صارما بالقاعدة الشائعة بين أغلب المستعملين لها في مجال لغة واحدة أو عدلنا عنها قليلا عملا بقول" بول فاليري "الشهير:الأسلوب هو الخروج عن القاعدة".أضف إلى ما سبق أن ما يتغير في اللغة لا يعتري المفردات الأساس مطلقا، وهذه الأخيرة هي التي تشكل أكبر نسبة في أية لغة، والذي في اللغة باستمرار هو بنيتها التركيبية، لأن البنية التركيبية من صنع المتكلم – وهو مهندسها – لكن ما كان يقدر لبنيتها التركيبية أن تتغير لولا تغير وتنوع قواعدها"[34]

و أيا كان النص ومصدره الذي استقى منه فهو خاضع في نظمه إلى علم النحو الذي تعد قواعده أمورا كلية بالوضع وسماعا من ذوي اللسان الأصليين، مثلما هو خاضع إلى علم اللغة الذي تعد أبوابه جزئية باعتبار قائمته مفتوحة حتى وإن اشترك مع علم النحو في الوضع، وكان الزركشي أكثر وضوحا إذ يقول:"والحق أن العرب إنما وضعت أنواع المركبات، أما الجزئيات الأنواع فلا، فوضعت باب الفاعل لإسناد كل فعل إلى من صدر عنه، أما الفعل المخصوص فلا،...وكذلك سائر أنواع التراكيب، وأحالت المعنى على اختيار المتكلم."[36]

ومما هو بين للعيان أن التغير الدلالي للعلامة اللساني التي انتقلت من دلالتها اللغوية إلى دلالتها الشرعية حدث بقوة دفع دلالي جديد من الخارج، و لم يعترها إلا جزئيا، لأنها ليست كلها دلالات جديدة، فالتغير نسبي وليس كليا، ولذا فإن تمثيل دي سوسور

ما يربط دالا بمدلول بورقة لا تقبله الوقائع اللسانية، بل تتناقض معه تناقضا صارخا، وأن المدلول حين يكسى بدال أو العكس لا ينفطم في شيء عن عالم الاعتباطات، بل كلما تزاوج صوت أو أصوات بفكرة ما إلا ودخل الدال والمدلول كلاهما في الآن ذاته عالم الاعتباط.[37]

إن كلمة "ميزان" التي ذكرها دي سوسور تعني على الأقل شيئين اثنين:

أحدهما حقيقي (وزن البضائع والسلع...) وآخرهما مجازي(رمز لدار العدالة وليس للعدالة)، ومع ذلك نعبر عن كل هذه الأشياء وما يتصل بمجالها حقيقة ومجازا وثقافة دون أن تتأثر إحدى الوحدات الصوتية الخمس أو تضطر لقلب أو إبدال، ومثال آخر "الكرسي" الذي وظف وظائف مجازية وحقيقية وحتى سيميوطيقية، قال تعالى:" وسع كرسيه السماوات و الأرض".

علاوة على دلالته القرآنية فهو كرسي الخلافة ن كرسي الحكم ، الكرسي المتحرك للمعطوب، كرسي(ال ...هي.ص214)

قال أبو بكر السجستاني في تفسير غريب القرآن "عدل" أي فدية، كقوله:"ولا يؤخذ منها عدل وقوله:"وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها "وعدل أيضا بمعنى مثل كقوله: أو عدل ذلك صياما " أي مثل ذلك[38] ومنه يطلق العدل بفتح العين على القيمة، الفدية، والرجل الصالح، والمثل، والحق، والقصد في الأمور،... هذا الدال المعبر به عن مداليل متعددة يوحي بقوة أن العلامة اللسانية لا يسودها تواضع مطلق، وأنها مستعدة لأن تشحن في أي لحظة مناسبة بمدلول جديد لم يكن متوقعا من ذي قبل دون أن تضيق ذرعا بالشحن الدلالي القديم، بمعنى أن الكلمات تدخل عالم الاعتباط فور توظيفها بهذا المعنى لتتجرد من أي تواضع واصطلاح استعدادا للانفتاح على معنى

آخر وهكذا، بعبارة أخرى أن الدال والمدلول لكلمة ما لا يقيم بينهما أي اتفاق حميمي ولا عدواني" [39]

ولا أحد يساوره شك في أن الإسلام كان عامل دفع قوي خلفي لشحن آلاف الكلمات شحنا دلاليا جديدا دون أدنى تغيير لدال العلامة اللسانية، وكنا أومأنا إلى ضرورة التمييز بين علامة غيرت دلالتها كليا وأخرى لم تحول إلا جزئيا أو بنسب دلالية يحدد مداها طبيعة السياق، وكان ابن فارس عظيما حين أشار إلى أن المصطلحات الجديدة لها اسمان، فإن كانت دينية فاسماها لغوي وصناعي "وعلى هذا سائر ما تركنا ذكره من العمرة والجهاد وسائر أبواب الفقه، فالوجه في هذا إذا سئل الإنسان عنه أن يقول: في الصلاة اسمان: لغوي وشرعي، ويذكر ما كانت العرب تعرفه ثم ما جاء الإسلام به، وهو قياس ما تركنا ذكره من سائر العلوم كالنحو والعروض والشعر، كل ذلك له اسمان: لغوي وصناعي."[40]

فنحن إذا قرأنا الحديث النبوي:"يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم ثلاث عقد، فإذا قام من الليل فتوضأ انحلت عقدة..."[41]

فإن مدلول القافية هنا لغوي، وهو مؤخرة الرأس، لكن القافية المعروفة في علم العروض ذات مدلول صناعي، وكلا المدلولين مأخوذ من علامة لسانية أصلية واحدة أي من قفا الرجل أثر الرجل إذا قصه أي تتبعه، والفرق بين العلامتين: الأصلية والفرعية أن الأولى دالة على مداليل عمومية، والثانية موقوفة حصرا على مدلول واحد مخصوص، أي كل علامة لسانية شرعية أو صناعية إلا ونقلت من عموم ذي عبارات واشتقاقات واسعة ومفتوحة إلى خصوص لا يتجاوز مدى ما يشير إليه، "مثال ذلك الصيام، وهو في الشرع محصور وفي اللغة يعبر به عن الإمساك والوقوف

فيكل موضع، يقال: صام النهار، إذا دومت الشمس به في السماء، وصام الفرس إذا قال النابغة:

خيل صيام، وخيل غير صائمة = تحت العجاج، وخيل تعلك اللجما

ومن ذلك الحج، هو في الشرع محصور، وفي اللغة يعبر به عن القصد إلى كل شيء، قال الشاعر(المخبل السعدي):

وأشهد من عوف حلولا كثيرة = يحجون سب الزبرقان المزعفرا"[42]

ومن ذلك الإيلاء، وعلامته اللغوية الأصلية مصدر للفعل الرباعي آلى يولي إذا حلف فهو مؤل، ومثله تألى وائتلى، وهو اليمين في كل شيء، كقول الشاعر:

وأكذب ما يكون أبو المثنى = إذا آلى يمينا بالطلاق

أو قول امرئ القيس[43]:

ويوما على ظهر الكثيب تعذرت = علي وآلت حلفة لم تحلل

في حين أن دلالة الإيلاء في الشرع أن يقسم الجل لا يطأ زوجته أربعة أشهر فصاعدا.[44]

ومثل ما مضى كلمات أخرى مثل المؤمن والمسلم والكافر والمنافق والفسق والفسوق والصلاة والزكاة والركوع والسجود والعمرة والمسجد والغزوة والسرية، ... وهذه الشحون الدلالية الطارئة على اللغة العربية مثلما حددها لها أحكام الشرع يسميها فقيه لغوي ضليع كابن فارس "الأسباب الإسلامية " علما بأن السبب في العربية هو الحبل أي "ما يتوصل به إلى الاستعلاء ثم استعير لكل شيء يتوصل به إلى أمر من الأمور، فقيل: هذا سبب هذا، وهذا مسبب عن هذا"[46] ،ومنه قوله تعالى على الاستعارة:"واعتصموا بحبل الله". وفيما أسماه ابن فارس:"الأسباب الإسلامية"يقول:

كان العرب في جاهليتهم على إرث من إرث آبائهم، في لغتهم وآدابهم ونسائهم وقرابينهم، فلما جاء الله ــ جل ثناؤه ــ بالإسلام حالت أحوال، ونسخت ديانات ، وأبطلت أمور، ونقلت من اللغة ألفاظ من مواضع إلى مواضع أخر بزيادات زيدت، وشرائع شرعت ، فعفى الآخر الأول ،... فصار الذي نشأ عليه آباؤهم ونشأوا هم عليه كأن لم يكن،... فكان مما جاء في الإسلام ذكر المؤمن والمسلم والكافر والمنافق وأن العرب إنما عرفت المؤمن من الأمان، و الإيمان هو التصديق، ثم زادت الشريعة شرائط وأوصافا بها سمي المؤمن بالإطلاق مؤمنا، وكذلك الإسلام والمسلم، وإنما عرفت منه إسلام الشيء ، ثم جاء في الشرع عن أوصافه ما جاء في الشرع عن أوصافه، وكانت لا تعرف من الكفر إلا الغطاء و الستر.

فأما المنافق فاسم جاء به الإسلام لقوم أبطنوا غير ما أظهروه، وكان الأصل من نفقاء اليربوعن لم يعرفوا في الفسق إلا قولهم:فسقت الربطة إذا خرجت من قشرها، وجاء الشرع بأن الفسق افحاش في الخروج عن طاعة الله – عز وجل- ومما جاء في الشرع الصلاة، وأصله في لغتهم الدعاء"[46]

كل ما ذكره هذا العالم الفقلغي فهو صحيح، غير أنه ليس جديدا كل الجدة، تكون العلامة الثانية جديدة بمعناها إذا تحول شحنها الدلالي الجديد تحولا لا قبل له بالعلامة الأصلية، ولذا فإن ما ذكره ابن فارس بالأسباب الإسلامية ليست إلا اشتقاقات دلالية تحتية مترابطة ترابطا بشكل ما، وبنسبة دلالية ما بعلامتها الأم، و إلا كان المعترضون على الرسالة حجة عليها بدعوى أن الكتاب المنزل نزل بلغة لا قبل لآبائهم وأجدادهم بها، بمعنى أن هذه الاصطلاحات الشرعية مولدة من دلالات أصلية خلفية،

وليست جديدة كل الجدة لعدم تغير أي صامت أو صائت قصير في البنيـــة اللغويـــة الأم.

واعل ما يناسب ما نحن بصدده قول ابن عباس:"إذا أشكل عليكم الشيء من القرآن فارجعوا فيه إلى الشعر، فإنه ديوان العرب. وكان يسأل عن القرآن فينشد الشعر"[47] ولذلك نجد العلماء مختلفين في الأسامي أو الأسباب الإسلامية بمصطلح ابن فـــارس؛ هل نقلت من اللغة إلى الشرع، فذهبت المعتزلة والفقهاء إلى أن من الأسامي ما نقل كالصوم والصلاة والزكاة والحج، بينما رآى البعض الآخر من العلماء أن الأســـامي باقية على وضعها اللغوي الأول الذي وجدت عليه يوم طروء هذه الكلمات الدينية الجديدة، و لم تنقل من وضع إلى وضع.[48]

وإذا كان لابد من أسامي جديدة في بنيتها الدلالية لتدل دلالة غير ذات عوج علـــى تلك المعاني الشرعية، فإن بعض العلماء ذهب إلى أنه ليس "من ضـــرورة النقـــل أن يكون في جميع الألفاظ، وإنما يكون على حساب ما يقوم عليه الدليل.فيحين قد يتجه عالم آخر وجهة أخرى موضحا أن الشارع قصر النقل "في الأسمـــاء دون الأفعـــال والحروف، فلم يوجد النقل فيهما بطريق الأصالة بالإستقراء، بل بطريق التبعية، فإن الصلاة تستلزم صلىّ."[50]

والعلماء الذين يستدلون على حدوث هذه الكلمات التي وظفها الشرع في الفتـــرة الإسلامية توظيفا جديدا أن علامات لغوية لم تكن معروفة لدى العـــرب في الفتـــرة الجاهلية مثل كلمة "الجاهلية " والمنافق وغيرهما، بل يتعجب العالم اللغوي ابن الأعرابي من عدم ورود كلمة "فاسق" في الشعر الجاهلي، مع أن هذا كله كلام عربي[51] ،

والذي يبدو لنا أن ليس ثمت أي عجب إذا احتوى النص القرآني على كلمة مثل "فاسق" لم يحتوها النص الجاهلي، إذ العبرة بالأصل المعجمي للكلمة وما يدل عليه من دلالات متقاطعة، فأصل الفسوق مثلا الخروج الخروج عن الطاعة أو خروج الشيء على وجه الفساد، وفي كلمة "فسق" ومشتقاتها اجمالا.

وتعجب ابن الأعرابي غير مسوغ لدينا ، لأن الرجل يعلم أحسن منا أن القرآن ليس معجما لغويا يضم كل ما سبقه من مفردات، وهو في الوقت نفسه محيط بكل اللغات، والقرآن كلام عربي التزم في نظمه واشتقاقه بما ألفه العرب في لسانهم، وما المانع من أن يستعمل اسم فاعل من فعل غير جامد لم تستنفد العربية الجاهلية منه كل مشتق؟

والفقرة السابقة تقودنا إلى التمييز بين الاصطلاح من جهة والمصطلح من جهة أخرى، فاسم المفعول "مظلومة "من الفعل الثلاثي "ظلم" بمعنى جار يدل على اصطلاح لأن اشتقاقه ظل متمسكا بنواة فعله الدلالية، لكن إذا عنينا به الأرض التي لم تحفر قط ثم حفرت، كقول ابن الأعرابي: "يقال للأرض إذا لم يكن فيها حفر"فحفر فيها: أرض مظلومة"[52] فإن هذا مصطلح، وإذا أطلق الظليم على ذكر النعام، أما إذا أطلق على التراب الذي يستخرج من عملية حفر بئر فهو مصطلح[53]

وبناء على ما أشير إليه أعلاه فمن الضرورة بمكان أن نعمل جاهدين على رفع كل لبسة أو إشكال بين مادتي الاصطلاح من جهة والمصطلح من جهة أخر، لأنهما شيئان مختلفان ينبغي ألا نلبس بينهما أو نتهاون في القيمة التي نجنيها من وراء هذا التمييز،

والذي نعتقده أنه من غير الممكن أن يطرأ مصطلح شرعي أو صناعي أو فني إلا وتقدم طروءه في لغة من اللغات اصطلاح دلالي نواتي، وإذا ما قدر لمصطلح أن تكون

النواة الدلالية لمصطلحه الذي اشتق منها أو قيس عليها بكيفية ما لا يخرج عن القاعدة المألوفة، فإن الأمر من قبل أن ومن بعد عندنا لا يعني إلا شيئا واحدا، وهو أن ذلك المصطلح المثار للنقاش مصطلح دخيل في تلك اللغة ما دامت نواته الدلالية فيها منعدمة.

وبالمثل، فإن العلامات اللغوية التي كسيت بدلالات شرعية زيدت أو حولت ليست غريبة ولا بعيدة عن علاماتها اللغوية الأصلية التي أطلقنا عليها الاصطلاح مقابل الدلالات الشرعية التي أطلقنا عليها المصطلح، فالصلاة بمعنى الدعاء كقوله تعالى:"وصل عليهم"أي أدع لهم، أو كقوله:" واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى" أي دعاء."[54]

أو كقول النابغة:

أمن آل مية رائح أو مغتدي = عجلان ذا زاد وغير مزود

أو درة صدفية غواصها = بهج متى يرها يصل ويسجد

لا تعدو عندنا أن تكون أكثر من اصطلاح، في حين أن الصلاة التي جاء بها الشرع مصطلح، ومثل الصلاة السجود الذي يعني طأطأة الرأس وانحناؤه كقول بعضهم:

فقلت له أسجد ليلى فأسجدا

أو كقول حميد بن ثورالهلالي:

فضول أزمتها أسجدت = سجود النصارى لأربابها

وأصل السجود أن يخفض البعير رأسه عند ركوبه، بينما سجود الرجل أن يضع جبهته بالأرض، بينما السجود لله تعالى في الشرع عبارة عن حركة أو هيئة خاصة، والسجود من الأضداد، فهو في لغة طيء يعني الإنتصاب[55]، ومثل الصلاة والسجود

الزكاة التي لم تكن تعرفها العربي من ناحية ما ينمو من الأشياء ويزكو ويزيد، واستعمل بعض الشعراء القديم منه اسم الفاعل بمعنى النماء الكثير[56]

ذريني وحظي في هواي فإنني = على الحسب الزاكي الرفيع شفيق

في حين أطلق الشرع مصطلح الزكاة على القدر المخرج من المال أو النصاب من ماشية وإبل وغلات مختلفة بشرائطها التي شرطها ، وطرقها التي حددها، ومثل ما مثل به سائر الكلمات التي نقلت من مواضع إلى مواضع أخر، بحيث أضفى عليها الشارع ما أضفى من دلالات شرعية جديدة لا تغيب عن لبيب.

وعلاوة على ما ذكرن فهناك مصطلحات دينية وفقهية شتى نعثر عليها في مصطلحات قرآنية مثل: السور، الحزب، الثمن، الآيات، السور المكية، السور المدنية، الناسخ، المنسوخ، أسباب النزول،... ونجدها في الفقه وكتب أصول الدين والقراءات القرآنية، والحديث.

ومن مصطلحات السنة: القول، الفعل، الإقرار، خبر التواتر، خبر الواحد، الحديث المتصل، المرسل المنقع،...

ومن مصطلحات الفقهاء: الإجماع القياس، وهو نوعان :"قياس علة وقياس شبه؛فقياس العلة أن تجمع المقيس والمقيس به علة،وقياس شبه أن لا تجمع المقيس والمقيس به علة، ولكن يقاس به على طريق التشبيه،وكثير من الفقهاء لا يفرقون بينهما"[57]، ثم الاستحسان الذي انفرد به أبو حنيفة وأصحابه الذين سموا لأجل ذلك أصحاب الرأي، وإلى جانب الاستحسان فهناك الاستصلاح الذي انفرد به المالكيون.

ومصطلحات الفقهاء متنوعة تنوع الوظائف والاستعمالات والممارسات اليومية والدينية، ففي الطهارة يقال: "الماء المضاف"وهو ما أضيف إلى شيء كماء الورد وماء

الخلاف[58] ونحوهما، بينما يطلقون على الماء الذي لا يضاف إلى شيء من غير جنسه "الماء المطلق"، ولعل هذا المصطلح من قولهم :فرس مطلق اليدين إذا خلا من التحجيل أي من دون أن تكون قائمتاه مبيضتين، في حين أن التحجيل نفسه عندهم في الوضوء غسل بعض العضد وغسل بعض الساق مع غسل اليد والرجل من باب الاحتياط لغسل المرفقين والكعبين غسلا جيدا، إضافة إلى مصطلحات أخرى مألوفة تعرفها الخاصة والعامة كالاستنثار والاستنشاق والمضمضة والاستجمار وهو الاستنجاء، وأخذ الاستجمار من الجمرة التي تدل على كل كومة من الحصى (جمع حصاة)، وكانت الجمرة تطلق على مجتمع الحصى بمنى، ومن ذلك رمي الجمار في الحج.

وفي الصلاة نجد عندهم مصطلح "التثويب"من ثوب الداعي إذا ردد صوته في الأذان، وتطلق هذه الكلمة على ما يردده المؤذن في أذان الفجر:"الصلاة خير من النوم"، أما ما يكرره ويردده من أذان، كترديده الشهادة بكامل أجزائها، فيدعى"الترجيع"، بينما "التحريم"هو التكبير في أول الصلاة،و "التحليل"هو التسليم، والتشهد معروف أيقولنا:"التحيات لله..."، بينما يطلق "القنوت" على دعاء الوتر[59]، والقنوت معناه الدعاء في الصلاة، ويطلق على القيام في الصلاة: ومنه:"أفضل الصلاة طول القنوت"وقد يسمى السكوت في الصلاة قنوتا ومنه قوله تعالى:"وقوموا لله قانتين"

ومن المصطلحات المتصلة بالصيام "القلس"من قلس يقلس قلسا إذا خرج من بطنه طعام أو شراب إلى الفم سواء أتقيأ أم أعاده، ويطلق القلس على من يكون في تلك الهيئة، وذكر الخليل بن أحمد أن القلس "هو ما خرج من الحلق ملء الفم أو دونه، وليس بقيء، فإن عاد فهو القيء"[60] ومما يستعمل في الزكاة قولهم :"الرقة عن بناء الصفة، وهو الورق(بكسر الراء وهي الدراهم المسكوكة أو المضروبة. وقيل: الورق

بكسر الراء والإسكان للتخفيف (الفضة)المضروبة ، ومنهم من يقول مضروبة كانت أو غير مضروبة "[61] ، وقال الفارابي : الورق المال من الدراهم[62] ، والرقة مثل عدة الورق، وأما الورق بفتح الراء فهو المال من دراهم أو إبل أو غير ذلك، وتجمع الرقة على رقين مثل غضين (جمع عضة، وهي القطعة من الشيء والجزء منه.)

والنصاب ما وجب فيه الزكاة من المال أي القدر المعتبر لوجوبها، وللفقهاء مواضعات أخرى كثيرة تتعلق بمكاييل العرب وأوزانها، يهتدى بها لإخراج الزكاة ووزنها وقياسها وتقديرها وتوزيعها على مستحقيها.

ومن المواضعات التي تضبط مناسك الحج مصطلح "القران" ويعني الجمع بين الحج والعمرة، وهو مأخوذ من قرنت الشيء بالشيء إذا وصلته به أو من كلمة القران عينها والتي كانت تطلق عندهم على أن يقرن الآكل بين تمرتين فيأكلهما، ولربما من الموالاة بين سهمين أي التناضل بينهما لأن القران يطلق أيضا على النبل المستوية من عمل رجل واحد[63]، وفي معين لغوي آخر:كأنه مأخوذ من قرن الشخص للسائل إذا جمع له بعيرين في قران وهو الحبل"[64]

ومن ذلك "الإفراد"وهو أن يفرد الحاج نية كل واحد من الحج والعمرة على حدة أي عكس القران، و"التمتع"أن يحرم للعمرة قبل الحج، ومن قالك "الإمتاع"لا ضير عليه لغة لأن أمتع وتمتع بمعنى، ولكن يجب اتباع المصطلح، و"الإستلام" هو لمس الحجر الأسود، يقال: إنه اشتق من السلمة (بكسر اللام)وهي الحجارة، كقول أحد الطائين:

ذاك خليلي وذو يعاتبني = يرمي ورائي بأمسهم وامسلمه

أي يرمي ورائي بالسهم والسلمة، والتعريف بالميم لغة حميرية[65]، ومنه "الرَّمل"أي الهرولة والإسراع بين الصفا والمروة من:رملت أرمل رملا ورملانا إذا هرولت،

وقريب من "الرمل" "الجمز" وهو ضرب من السير أو العدو في المشي أشد من العنق(نوع من السير فسيح سريع وهو من أعنق إعناقا)، ومنه كذلك "الهدي" وهو ما يهدى إلى بيت الله الحرام من النعم[66] يثقل ويخفف، الواحدة: هدية بالتثقيل والتخفيف أيضا، وقيل: المثقل جمع المخفف أي: "هدي"جمع، والهدي مفرد، وأهديت الهدي إلى الحرم سقته، والرباعي فيه لغة قيس عيلان[67]، ولربما استعير الهدي لليمين كقولهم:"مالي هدي إن كان كذا وكذا "، وقرئ: "حتى يبلغ الهدي محله" تشديدا وتخفيفا[68]. وقال زهير بن أبي سلمى مثقلا الهديّ:

فلم أر معشرا أسروا هديًا = و لم أر جار بيتٍ يُستباء

وفسر الهديُّ أنه الرجل ذو الحرمة كحرمة الهديّ الذي يهدى إلى البيت فلا يرد عن البيت ولا يصاب[69]، وقال عنترة :

هديّكم خير أبا من أبيكم = أبر وأوفى في الجوار وأحمد

أي المستجير بكم ــ وهو الهديّ ــ خير من المستجار به في العهد والأمان.

ويتبع هذه المواضوعات الدينية مواضوعات أخرى متنوعة تحتاج إلى قاموس ضخم مستقل لإحصائها والإشارة إليها مثلما هو الشأن بالنسبة للمواضعات الخاصة بالبيع والشراء مثل: العرايا التي مفردها عرية وهي النخلة يعريها صاحبها رجلا محتاجا فيجعل له ثمرها عاما فيعروها المحتاج أي يأتيها، فعيلة بمعنى مفعولة، ودخلتها الهاء لأنه ذهب بها إلى الأسناء كالنطيحة والأكيلة، فإذا جيء بها مع النخلة حذفت الهاء وقيل: نخلة عري، والعرايا عكس المزابنة، واذا رخص في العرايا ونهي عن المزابنة التي هي بيع الرطب (ثمر النخل إذا أدرك ونضج قبل أن يتمر) في رؤوس النخل بالتمر، لما فيه من مجازفة من غير وزن ولا كيل، ومثل المزابنة الغرر ألا وهو بيع الخطر كبيع الطير

والسمك قبل أن يصاد، ونهى الشرع عنه، وهناك المحاقلة الدالة على بيع الزرع في سنبله بحنطة أو بر، ونهى عنهكذلك وثمت "النجش" من الرجل نجشا (من باب قتل) إذا زاد في سلعة أكثر من ثمنها، وليس قصده أن يشتريها بل ليقع غيره وليس من حاجته وكل ما شابه هذا قد نهي عنه في الحديث"لا تناجشوا"وأصل النجش لغة: الاستتار، لأنه يستر قصده، ومنه يقال:للصائد:"ناجش"لاستتاره.

وثمت مواضعات أخرى تخص المصطلحات الشرعية للزواج والطلاق وماتعلق بهما، فضلا عن الديات والفريضة دون التلميح إلى المواضعات المذهبية ومواضعات متكلمي الإسلام كالمعتزلة والخوارج والمرجئة والشيعة والمجبرة،... ومن العلامات اللغوية الجديدة ذات المداليل الفلسفية والماورائية التي وظفها متكلمو الفرق الإسلامية وأثروا بها اللغة العربية بدلالات فرعية جديدة "الشيء هو ما يجوز أن يخبر عنه، وتصح الدلالة عليه ، المعدوم هو ما يصح عنه سؤال السائل:هل يعدم إلى أن يجاب عنه بلا ونعم؟ وقيل: الموجود هو الكائن الثابت، والمعدوم هو المنتفي الذي ليس بكائن ولا ثابت . القديم هو الموجود لم يزل،المحدث هو الكائن بعد أن لم يكن الأزلي الكائن لم يزل ولا يزال الجوهر هو المحتمل للأحوال والكيفيات المتضادات على مقدارها، وعند المعتزلة المتكلمين أن الأجسام مؤلفة من أجزاء لا تتجزأ، وهي الجواهر عندهم، والخط عندهم المجتمع مع الجواهر طولا فقط، والسطح ما اجتمع من الجواهر طولا وعرضا فقط، والجسم عندهم المجتمع من الجواهر طولا وعرضا وعمقا، والعرض أحوال الجوهر كالحركة في المتحرك، والبياض في الأبيض، والسواد في الأسود"[70].

أردت أن أقفك معي على هذه المواضعات الفلسفية لنرى كيف أن مداليلها الفرعية الجديدة شطنت شطونا بعيدا عن علاماتها الأصلية، لأنه ما عدا كلمة"الجوهر"التي

يقال إنها معربة[71]، فالكلمات الباقية كلها ذات دلالات خلفية عربية أصيلة، ولكن المرء مع ذلك يشعر بأنه أمام لغة تختلف اختلافا جذريا عما عهده في هذه الكلمات لو عاد بها إلى وضعها في اللغة الجاهلية ومع شعورنا بذلك فإننا لا ننخدع مع ذلك بأننا أمام لغة جديدة كل الجدة، لأن الأمر يتعلق بفضاء دلالي فلسفي جديد متقاطع مع الفضاءات الثقافية الخارجية الجديدة التي احتكت بها الديانة الإسلامية والثقافة العربية ليس إلا وجاءت هكذا جافة وباردة لأنها نقلت من مواضع ألفت التعبير عنها بسليقة وطلاقة ومجاز إلى مواضع أخرى لا قبل لها بها .

ولانريد أن نغادر هذا الموضوع الذي أمتعنا وشوقنا وجذبنا إليه جذبا من تذييله مما سميته ب:"تداخل المواضعات بين رجال اللغة والفقه والحديث".

أجل، أشرنا في مدخل هذا العمل إلى أنه بات لزاما علينا أن نميز بين"الاصطلاح"الذي هو شأن لغوي صرف من جهة و"المصطلح"الذي هو شأن شرعي أو صناعي أو فني من جهة أخرى، مما يدعو إلى القول إن الاصطلاح في لغة من اللغات هو المعتد به أساسا، أما ما ينبثق عن هذا الأخير من مصطلحات أيا كان ضربها لا يشكل قيمة لسانية في نفس الرتبة والأهمية بالنسبة لمدلوله الأصلي، ولعل فكرة دي سوسور:"إن الفعل الذي توزع به الأسماء على أشيائها، في زمن ما، والذي نحرر به أيضا عقدا بين التصورات والصور السمعية إنه لمن الممكن تصور هذا الفعل من غير بيانه أبدا، كما أن شعورنا القوي باعتباطية العلامة يوحي لنا بفكرة أن الأمور إنما حدثت بهذا النمط، وليس بسواه"[72]

توضح هذه الإشكالية بعض التوضيح، حتى وإن كانت تنأى عما نحن فيه، كلما تحررنا من عقدة ربط تصور بصورته السمعية ربطا مطلقا، لأن كلمة "المشترك"مختلفة

تصورا بين الجاهلية والإسلام، ولكنها في الوقت نفسه ذات صورة سمعية واحدة،ولذا فمقاومة العلامة اللسانية لتبدلها لا يدل في المقابل على ثبوتها، وبالتالي فإن العوامل التاريخية وحدها غير كفيلة بضمان ثبوت علامة لسانية، كل تصور خارج المقدس عرضة للتبدل والتغيير ولربما الزوال"نعم لتجدد اللغة وتبدلها في مداليلها بنفس الدوال المألوفة، مثلما حدث في العربية الإسلامية التي حولت المؤمن، والمسلم والكافر والمنافق والصلاة والركوع والسجود والصيام والإمساك والحج والزكاة،...من دلالات قديمة في العربية الجاهلية إلى دلالات تتعلق بالتوحيد والعبادة والشريعة في العربية الإسلامية الجديدة، نعم لزوال بعض التراكيب القديمة بزوال معانيها.

والذي يبدو لنا أن التقاطع بين الدلالة النحوية والدلالة الشرعية تقاطع لا يتم عفويا ولا قسريا، بل تقاطع تحصل مواضعته إراديا كنتيجة للتمدد الطاقوي للمدلول الأصل، ويدلنا هذا التقاطع المتماثل نسبيا بين المدلولين اللغوي والشرعي على أن التواضع الذي أضفي على علامة لسانية ليس اتفاقا نهائيا ومغلق المجال، بل هو شحن للدال بكيفية ما وليس بكل الكيفيات، و إلا لما قبل الدال نفسه لعلامة لسانية بعينها أن يشحن شحنا جديدا بمدلول أو مداليل لا متناهية، ونستنتج من هذا أن ليس هناك اعتباط مطلق ولا اصطلاح مطلق للعلامة اللسانية، لأنه لو لم يكن الأمر إلا كذلك لوجب أن يكون لكل مدلول دال قائم بذاته لاختلاف الوظائف الناجمة عن دال واحد، إذ لا أحد يجرؤ على القول بأن مصطلحات شرعية مثل الشهادة، والتشهد والصلاة، والزكاة، والجهاد،... لم تعد تحمل الدوال الصوتية ذاتها لكنها زودت بشحنات دلالية فرعية، وهي بالتالي لا تمثل إلا بنيات دلالية ما بعدية متحولة عن

بنيات دلالية ما قبلية، بمعنى أن هذه المداليل الجديدة لم تتغير إلا على مستوى التقطيع الأول .

إن الإشارات السابقة الدالة على مدى تفتح العلامة اللسانية على مستوى تقطيعها المزدوج الأول دون أدنى مس بوحدة صوتية واحدة على مستوى التقطيع الثاني لا تجعلنا نذهل من تلك التداخلات الهائلة بين مصطلحات حقلين أو أكثر لا صلة للواحد بالآخر تخصصا واهتماما، من ذلك ما نلحظه بين النحو والحديث.

المصـــــادر والمـــــراجع :

1-تفسير غريب القرآن ، أبوبكر السجستاني عالم الفكر – القاهرة –

2-ديوان زهير بن سلمى ، دار الكتب المصرية 1937

3 – شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات أبوبكر محمد بن القاسم الأنباري تحقيق : أ. عبد السلام محمد هارون ، ط : 2/ 1969 دار المعارف بمصر

4-الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها أحمد بن فارس ، تحقيق : د.مصطفى الشويمي أ. بدران للطباعة بيروت ط: 1963

5-الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية) إسماعيل بن حماد الجوهري تحقيق الأستاذ : أحمدعبدالغفور عطار ، ط: 3/ 1984 دار العلم للملايين ، بيروت .

6- الصوتيات والفنولوجيا : الأستاذ مصطفى حركات. دار الآفاق الجزائر

7-طبقات النحويين واللغويين الزبيدي تحقيق الأستاذ محمد أبوالفضل إبراهيم، دار المعارف مصر

8-الظاهر والمختفي (طروحات جدلية في الإبداع والتلقي) (مخطوط) عبد الجليل مرتاض .

9-الفاضل ، للمبرد دار الكتب المصرية 1956 .

10-كتاب القوافي ، القاضي أبويعلي عبد الباقي عبد الله بن المحسن التنوخي تحقيق : د. عوني عبد الرؤوف ، مطبعة الحضارة العربية ط: 2/1978 القاهرة

11- اللسان، ابن منظور دار صادر بيروت ط 3/ 1994

12- اللسانيات الميسرة الأستاذ سليم باباعمر ، الأستاذة باني عمـــيري ، أنـــوار ط:1990 الجزائر

13- اللغة والتواصل ، عبد الجليل مرتاض ط:2000/ دار هومة الجزائر .

14- مجلة المصطلح عدد : 2002/1 تصدر عن (مخبر تحليلية إحصـــائية في العلوم الإنسانية) جامعة تلمسان .

15- مجلة * اللغة العربية * عدد : 2002/6 من إصدار المجلس الأعلـــى للغـــة العربية (الجزائر).

16- محاضرات في الألسنية العامة ف. د ي سوسور ترجمة: يوسف غازي ، مجيد النصر دار نعمان للثقافة بيروت ط: 1/ 1984 .

17- المختصر في أصول الحديث ، أبو الحسن الجرجاني ، تحقيق د. فؤاد عبـــد المنعم أحمد، دار الدعوة للطبع والنشر الإسكندرية .

18-المزهر، السيوط تحقيق : محمد أحمد جاد المولى، علي محمد البجاوي، محمـــد أبو الفضل ابراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي.

19- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي وتأليف : أحمد بن محمـــدابن علي المقرىء الفيومي المكتبة العلمية بيروت .

20- مفاتيح العلوم ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الكاتب الخـــوارزمي مطبعة الشرق ، القاهرة .

21- المفضليات ، للمفضل الضبي ، تحقيق الأستاذين : أحمد شاكر،عبد السلام محمد هارون ط: 1963/3 دار المعارف مصر .

22- DICTIONNAIRE DE LINGUISTIQUE PAR JEANDUBOIS
LIBRAIRIE LAROUSSE PARIS .
23- INITAION A. LA .INGUISTQUE CHRISTIAN BAYLON ,PAUL FABR. EDITION FERNAND NATHAN 1975